٢٠١٣/١٠/٣١

الفرح الأخير

سمية رمضان

المشهد العام:

اللقطة التى أود التعامل معها هنا هى لصورة فوتوغرافية أبيض واسود ألتقطت فى أوائل الخمسينات. الصورة طبعت على ثلاث مقاطع من الورق المقوى لتضم أكبر عدد ممكن من الحضور فى قاعة الأفراح بفندق هليوبوليس بالاس. أول ما يلحظه المرء هو فساتين السهرة "الديكولتيه" الطويلة والشعور سواء معقوصة فى شينيون أو مرسلة فهى مدرجة (ديجراديه) ومتموجة على الجبين و الطرابيش على رؤوس جميع الرجال فوق الخمسين، أيا كانت أعراقهم و خلفياتهم الاثنية.

فستان العروس من "الجيبور" وطرحتها طويلة جدا. الكوشة بسيطة من الورود البيضاء و يقف خلفها فى وضع الحرس السفرجية فى الزى الذى فرضه الفندق على الأرجح. أتصور أن قفاطينهم ملونة ويضعون الطرابيش على روؤسهم كما هو الحال حتى اليوم فى فنادق القاهرة. الحضور منقسمون على اليمين وعلى اليسار يفصل بينهما فى الصورة الممشى الذى كان خط سير الزفة الى أن جلس العروسين فى الكوشة. الصفوف الأقرب للكوشة يحتلها أقارب العروس فى حين يحتل أقارب العريس عرض الصورة الأقرب الى زاوية التصوير ويبدون بالتالى أوضح. ينقسم أقارب العريس الى جذور بدوية فلاحية (اقطاعية) وأخرى تركية وأزهرية فلاحية (ذات حيازات زراعية متوسطة). يجلس البدو والفلاحين الاقطاعيين على اليمين وفى مواجهتهم الأتراك و العلماء (الأزهريين). هذه الفروقات لا تتبدى فى الصورة حيث أن الجميع قد خاض معارك "الحداثة" على نحو أو آخر وانتهى الأمر بفوز الحداثة فى "المظهر" تماما كما أوصت به مدام باريكاكى أو كاماى أو ديمترا. اما البدل فغالبا من الصوف الانجليزى والقمصان والكرافتات من جورج.

كان هذا العرس من أول الأفراح التى أقيمت فى مكان عام بدلا من حدائق البيوت كما كان معتادا لدى تلك الشريحة الاجتماعية. بعدها أصبحت الأفراح لا تقام الا فى الفنادق الكبرى ثم عادت مرة أخرى فى السنوات الماضية الى حدائق البيوت بعد أن اتاحت الثروات التى جمعت أو أعيد تجميعها العيش فى منازل أقرب الى القصور "بعد حداثية" التصميم على أطراف العاصمة.

ندرك اذن أن اللقطة توثق للحظة انتقال فى حيوات الطبقة المتوسطة من الشريحة فوق المتوسطة. والتى كانت على وشك فقدان مكانتها لأسباب سوف تتبدى من خلال التحليل تحت الفقرة المعنونة "الواقع".

المسرحية:
الأدوار فى هذه المسرحية مقسمة ما بين الفلاحين و البدو والعلماء (الأزهريين) والشراكسة، بعد الفوز الساحق لأنساق الحداثة و التحديث الذى كان قد مر عليه لدى التقاط تلك الصورة نيف و مائة عام لو افترضنا جزافا ان بداية الانصياع كانت حوالى ١٨٧٦ أى سنة تولى الخديو اسماعيل حكم مصر. وذلك على الرغم من خلاف تلك الجماعة المستميت ضد فكرة دولة مركزية تحكم من قبل خديو، حيث الأسطورة المركزية فى تلك الجماعة التى تبدو فى الصورة هى أن مؤسس العائلة قتله الخديو بقذفه من ماسورة مدفع! وذلك لأنه لم يدرك أن قامته لا يمكن أن تطاول قامة خديو مصر فكان يأوى الفلاحين الهاربين من السخرة فى قناة السويس. وكان مؤسس العائلة على استعداد أن يحارب الخديو نفسه حتى جعله الخديو عبرة لمن يعتبر بأن أمر بقتله من فوهة مدفع. هربت الأم التى كان لها ثلاثة من الأولاد الذكور مستجيرة بالسنوسية فى ليبيا مع أولادها بعد أن أخفتهم فى زى بنات. وعاد الجميع بعد اعلان العفو الذى شمل كل البدو واقطاعهم بعضا أو كثيرا من أجود أراضى المنيا فى مصر الوسطى حيث كانت اقامتهم الأولى على اية حال هربا من الأندلس سنة سقوط غرناطة فى ١٤٩٢ وفقا لمؤرخ الأسطورة السيد فراج المصرى.
شخوص هذه المسرحية أبطالها من النساء وبالتحديد اثنتين يتنافسن على دور "المنقذة". فهناك بالفعل خطر قائم ربما لا تدركه سواهما.
ويلعب الرجال من الأتراك (الأفندية) و الأفندية من أصول أزهرية أدوارا ثانوية للحفاظ على مظهر الأشياء وان كانوا على ادراك مبهم أن دورهم الى زوال قريب. ويمثل العريس هنا دور المثقف الحديث الذى تعلم تعليما عاليا وعمل بالصحافة واعتقل وفتح بيته للهاربين من البوليس السياسى ابان المرحلة السابقة على قيام الثورة. أما العروس فهى الوجه الأنثوى لهذا الوعى وان كان يبدو انها انتقيت وفقا لمعايير "الوداعة" و "الرقة" وهى بالتالى النقيض التام لابنة العم "البدوية" المفعمة بالحيوية و الاعتزاز بالذات والتى تنافس أم العريس (خالتها التى هى أيضا عمتها) على دور البطولة. يذكر أن العروس من الشمال والعائلة التى دخلت اليها العروس الوديعة بالزواج جميعها من أصول صعيدية ما عدا الشراكسة.
قواعد المسرحية: الأكثر انسجاما مع شروط الحداثة يسود.
الشعائر: شعائر العرس فى قاهرة الخمسينات قبل صدور قوانين الاصلاح الزراعى الثانية وقد طالتها يد الحداثة فانتفت بالتالى ليلة الحناء واقامة العرس فى حديقة المنزل التى كانت تتسع لولا التمرد المحدث.
الاستراتيجيات المطروحة: التنافس الطبقى و اضمحلال السطوة بقبول الحداثة و التعالى الاجتماعى المركب.
القيم المعلنة: مؤازرة العشيرة والتفاخر بالأنساب.
اللغة: بدأت تتحول الى اجترار أمجاد الأجداد بالذات بين البدو والأزهريين. الشراكسة لا يملكون من الماضى سوى لون بشرتهم و زرقة عيونهم فالدخول فى أصول العائلة ربما أتى بما لا تحمد عقباه. فقد

عرف عن علماء الأزهر أنهم كانوا يحرصون على اقتناء "الزوجات" الشركسيات لأسباب الوجاهة الاجتماعية. ولكن نفس الوجاهة لم تكن تقف حائلا بين ضرورة وجود "زوجة" اثيوبية حارة الدماء عليمة بأمور المتعة. لكن أبناء "البيضا" كانوا فى مكانة أعلى دائما بسبب تعليمهن الأرقى نسبيا و معرفتهن بلغة الصفوة الارستقراطية الحاكمة. نبرة الحوار فى العموم متوجسة، متوترة، وبها مس شفيف من الحزن. لا يوجد وجه مبتسم واحد بين الحضور باستثناء وجه العريس الذى يبدو متيما تماما والعروس التى تبتسم فى خفر لائق.

أنماط الحركة: تكاد الحركة تكون ساكنة تماما فيما عدا شاب أو فتاة أخذا على عاتقهما التحرك بين الصفوف المتواجهة فى محاولة يائسة لدرء صدع ما، ربما كانوا هم أنفسهم عل غير دراية حقيقية بوجوده.

الأسطورة التى استقت منها المسرحية:

كما جاء ذكره عاليه هى أسطورة سطوة سياسة وأفضلية عرقية تعتمد على ذكرى قيم كانت تضعهم فى مرتبة أخلاقية أعلى من كل من الأتراك والفلاحين. تتمثل هذه القيم فى اعانة اللاجىء و غوث المحتاج و الكرم و الجود حتى ان أبو العريس و كان شاعرا بالمزاج و الفطرة خسر أرضه و قصره وأملاكه الا القليل بسبب "الشهامة" التى كانت تقتضيها الأعراف عندما خسر أخاه كل ما يملك فى البورصة فما كان أمامه الا التضحية بأملاكه من أجل انقاذ شرف أخيه وترك لامرأته (أم العريس) وهى من أصول أزهرية فلاحة، مهمة تربية و تعليم خمسة من الأبناء و البنات وحدها تماما وذلك لأنه توفى تحت وطأة و هول المسئولية فى الوقت المناسب تماما! والمأساة التى تحويها الأسطورة من ضمن مآس أخرى كثيرة هى عدم ادراك المندرجين فى تلك المسرحية أن الزمن قد عفى على نعرتهم البدوية وأفضليتهم العرقية على كل من الأتراك (فى هدذه الصورة على الأقل) والفلاحين فى جميع الصور الأخرى وبالأخص فى صورة أم العريس التى وجدت نفسها فى وضع المنافسة مع ابنة أخيها التى هى ابنة أختها. ربما توجب الوقوف عند تلك المعلومة دقيقة حتى لا يتهم أحدهم بتهمة لا تليق. كانت أم العريس وحيدة أبويها. وكان أبوها من الفلاحين وأمها من البدو. ولكن كل من الأب و الأم تزوج مرة ثانية بعد انفصالهما لأسباب لا تخصنا فى هذا المجال. تزوج الأب فى المرة الثانية من بدوية وتزوجت الأم من ابن عمها كما يتوجب العرف بين البدو. وبذا أصبح لتلك السيدة أخوة و أخوات من ناحية الأم لا يقربون بعضهم لبعض وكذلك من ناحية الأب فأرادت وهى كما قلنا قد ارتضت دور "المنقذة" فى تلك الملحمة الصغيرة أن تلم الشمل فزوجت أختها من أمها لأخيها من أبوها حتى لا ينفرط العقد. ولكن لأنها زوجت "العربى"و "لعربية" لم يحدث أن تخلى ايا منهما عن نظرتهما المتعالية لأختهما "الفلاحة" بل ربما دفعت ثمن هذا الحرص على الأرض ووجوب عدم تفتيتها وتركها للأغراب فيما بعد، غاليا. وتتبدى أولى فصول تلك المأساة فى وثيقة زواج ابنة الأخت والأخ المشار اليهما الى ابن عمها ذو السطوة و الجاه العاطل بالوراثة بدلا من ابن

"الفلاحة" المتعلم الذى كانت تحبه! ومن تلك اللحظة تدخل ابنة الأخ والأخت حلبة المنافسة مع عمتها/خالتها على دور "المنقذة" الذى مهدت له أمها "العربية" منذ البداية وأدارت صراعاته من خلف الستار حتى لا تدخل فى مواجهة مع أختها وأبنائها. وبالفعل انتصر "العرب" على "الفلاحين" أو "أنصاف السادة" الذين حافظوا لهم على الأرض و السطوة دون مقابل على الاطلاق.

الواقع:

لم يكن فى حسبان أى من الشخوص فى تلك المسرحية أن الأرض كانت على وشك الضياع التام. كما أنهم ظلوا على عنجهيتهم حتى بعد ضياع الأرض. لم يكن فى حسبان الأفندية الأزهريين و أمتداداتهم الشركية أنهم سوف يصبحون فى حيز "الموظفين" مهما علت سمات الوظيفة بسبب دخول "المثقفين" الساحة من ناحية ولأن "الوظائف الكبرى" كانت على وشك أن تذهب كلها "لأهل الثقة" لا لأهل الخبرة. وهكذا نرى النهاية المأساوية لكل الأسر التى تحتفل بهذا العرس وعلى روؤسهم الطير و كأنهم كانوا يعلمون ما سوف تؤول اليه الأمور. اصحاب الأراضى والسطوة والنعرة العرقية افتقروا و زج بهم فى السجون وحرموا من حقوقهم المدنية. حتى أن أحدهم كان يذهب الى البنك فيعطى شيكا بخمسة جنيهات من القائمين على أموال "الحراسات". أما الأفندية الأزهريين و وجاهاتهم الاجتماعية التى كانوا يستقونها من مصاهراتهم التركية فأصبحوا غير ذى بال وآلوا الى مستودع "صغار الموظفين". المثقفون الجدد وقف تاريخ عائلاتهم و ما ورثوه من عدم قدرة على المنافسة مشبعا بحس غير عملى و غير حقيقى بالجدارة والاستحقاق حائلا بينهم و بين التأثير فى النظام الجديد الذى كان يغذيه الجيش، تواروا وخفتت أصواتهم وماتوا فى الظل. وهو ما حدث للعريس فى هذه اللقطة وهو الذى كان يأوى و يطعم فى بيته الهاربون من البوليس السياسى قبل قيام الثورة و منهم الرئيس أنور السادات وكان الوحيد الذى تذكر تلك الأيام فيما بعد وبعث يسأل و يطمئن الا أنه أجيب بحس الكرامة المعتاد. وان كان يذكر فى هذا المجال كبار رجالات الأقباط ممن كانوا يرتادون نفس الأندية أو يعيشون على مقربة.

العفو:

أبطال المرحلة التى تلت الاضمحلال مباشرة لا يظهرون فى الصورة . وهم من ضباط الجيش من خلفية أزهرية شركسية، حانت ساعة تألقهم بتبنيهم أفكار الضباط الأحرار. وكانوا معظمهم من الشباب و الفتوة و الوسامة والثورة على الأوضاع و الثقة بالنفس تؤهلهم لخطف أى جميلة من جميلات المجتمع الذى يظهر فى الصورة. ولكنهم لا يعنيهم من أمر الماضى شىء فقد كان برمته و "ذيوله" لا يمثل سوى كل ما أرادوا

الثورة عليه واستبداله بقيم الحرية و العدل و المساواة! السؤال الذى يستجدى الكتابة هو "لماذا فشلوا" وكانت لديهم كل المقومات؟!